جماليات الرّمز الصوفي في العتبات النّصية؛ ديوان (انطق عن الهوى) لعبد الله حمّادي أنموذجا

The Aesthetics of the Sufi Symbol in textual passages, the Collection "I Speak from Desire" by Abdallah Hammadi as an exemple

أحسن بوعقدية*
Ahcen bouakkadia
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة (الجزائر)
University of August 20, 1955, Skikda (Algeria)
a.bouakkadia@univ-skikda.dz

تاريخ الإرسال:2024/03/21	تاريخ القبول: 2024/05/18	تاريخ النشر: 2024/09/02

مُلخّص البحث

استطاعت القصيدة الجزائرية المعاصرة بما أتيح لها من إمكانات وآليات فنية جديدة من تشكيل عوالم شعرية متخيلة لاستيعاب متغيرات الراهن الجزائري بكل تعقيداته الحضارية ونقده نقدا فنيا واعيا ورصينا محملة بأجوبة شفافة كخلاص وحيد للإنسان للخروج من أزماته وإحباطاته في كتابات شعورية ووجدانية ومعرفية. وقد كانت التجربة الصّوفية أحد عوالمها بما تحمله من تجارب ثرة وغنية في تراثنا العربي الإسلامي تشكيلا وموقفا من الذات والوجود، استقى منها ديوان (أنطق على الهوى) للشاعر الجزائري "عبد الله حمّادي" مادته لبناء عالمه الشعري، ضمن هذا الإطار تسعى هذه المحاولة البحثية لمقاربة تجليّات التجربة الصّوفية في هذه الكتابات الشعرية مقاربة سوسيو نصية بدءا من الوقوف على جماليات الغلاف الخارجي وصولا إلى المتن ومحاولة قراءة الرمز في أبهى تشكلاته الممتزجة.

الكلمات المفتاح : صوفية، لغة، رمز، شعري.

Abstract :

Contemporary Algerian poetry, with its capabilities and new artistic mechanisms, was able to form imaginary poetic worlds to assimilate the variables of the Algerian status quo with all its cultural complexities, and criticize it in a conscious, sober, and artistic way, full of transparent answers, as the only

*أحسن بوعقدية a.bouakkadia@univ-skikda.dz

salvation for man to get rid of his crises and frustrations in emotional, sentimental, and cognitive writings. The Sufi experience was one of its worlds, with the valuable and rich experiences it carries within our Arab-Islamic heritage, which has a formation and position on self and existence, from which the poetry collection (I Speak from Desire) by the poet Abdallah Hammadi drew its tool for constructing his poetic world. This research paper seeks to explore and examine this aspect.

Keywords: Sufism, language, symbol, poetic.

المقدمة :

تتفق التجربتان الصوفية والشعرية في الهدف/التغيير، الكشف، والمعرفة؛ معرفة معنى الحياة والوجود أو البحث عن الحقيقة المطلقة، وما يخفيه من أسرار مبهمة، ففي التجربة الصوفية وفي حالة من التأمل والارتقاء والعلّو والرؤى والمنامات والإشارات والمكاشفات القلبية والسماع ليحلّ في دار الفردانية تتغيا في سفرية وعناء القبض على معنى الوجود، إذ يعمل المتصّوف "على مكابدة النفس والهوى والشيطان ويعمل على التعبّد وتصفية بواطنه، ثم يخرج من مشاغل الحياة وزخرف الكون، فينفتح له باب القربى ويرفع إلى مجالس الأُنس ثم يجلس على كرسي التوحيد، فيرفع عنه الحجب، ويحلّ في دار الفردانيّة، ويكشف عنه الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة، بقي بلا هو فانيا عن نفسه وصفاته عن حوله وقوته..." 1 كل ذلك يتمّ بمعزل عن العالم والناس وبعيدا عن المنطق والعقل فإنّه في التجربة الشعرية لا يمكن عزل الشاعر عن العالم والناس في رحلة البحث عن معنى الحياة والوجود، فإذا كانت التجربة الصوفية تتم في كنف الخلوة والتوّحد والانعزال، على اعتبار أنّها استبطان منظم لتجربة روحية، فإنّ التجربة الشعرية تتم في خضم الانغمار في العالم، والانخراط في الحياة وما تطرحه من قضايا وإشكاليات ورهانات ومصائر وهي تترصد الكتابة الحقيقية التي تتكئ على التفكير والتأمل وتجعله أكثر إحساسا وأعمق تبصّرا كتابة تأبى الطاعة والخضوع والاستسلام وتنشد القيم الإنسانية المثلى وكشف المستور والمغيب والمقصى من التفكير في حياة الإنسان بغية القبض عن معنى الحياة الحقيقية، فالشاعر أو الرائي المعاصر ابن بيئته ولسان حالها، والمعبر عن آلامها وتطلعاتها، فلم يتخل قط عن دوره الريّادي في التعبير عن وجدان الأمة أو (دور النبوّة)، ومن ثمة فالتجربة الشعرية نتاج رؤية ذوقية حدسية جرّاء انصهار الذاتي بالموضوعي الخاص/ بالعام، الحقيقي/ بالتخييلي الواقعي/ السّحري أو

الأسطوري، الكائن/ بالممكن، ليمكن القول أنّ كلي التجربتين متماسكتان، متشابهتان في الغاية والمنطلق مختلفتين في المادة والمصوّغ في رحلة البحث عن معنى الحياة والوجود .

لأجل ذلك ساورنا البحث فيما تضمره التجربة الشعرية في القصيدة الشعرية الصوفية الجزائرية المعاصرة على وجه مخصوص من أسئلة وما تقدمه من أجوبة لمعانقة معنى الحياة الحقيقة في ظل كل هذه التحولات الحضارية الشائكة التي أصبح يعيشها الإنسان الجزائري المعاصر، وقد أصبح أكثر من أي وقت مضى عرضة لمخاطر داخلية وخارجية قذفت به إلى حدّ اليأس والنفي والغربة والموت؟ وقد اتّخذنا من المنهج السوسيو نصي أداة للتحليل الذي ظهر على يد الناقد الفرنسي (بيير زيما pier zeema) مستفيدا من إرث النقد الاجتماعي الذي كرسته بداية (مدام دو ستايل m.de stiel) في مطلع القرن 19 ومجهودات (كارل ماركس carle markas) وزميله (انجلز inglez)، الذي سعى إلى تقنين الظاهرة الإجتماعية على اعتبار ذلك الجدل القائم بين البنية التحتية والفوقية والأدب يفسر تلك التناقضات، ومجهودات (جورج لوكاتش djourdje loukatche) الذي يعدّ أول من أشار إلى تفاعل الجمالي والفكري وأخذ على يده (لوسيان غولدمان loussiane gouldmane) هذه المحاولات فيما يسمى بالبنوية التكوينية الذي جمع بين النص والسياق منطلقا من آلية رؤية العالم واعتبار الأدب بنية دالة قائمة على فعل الالتحام بين الفكري والفنّي يمكن إخراجها من مرحلة الفهم إلى مرحلة التفسير، ولعل هذه المنطلقات قد شكّلت خلفية معرفية ونقدية لـ (بيير زيما) وإن كانت مسبوقة بمجهودات (ميخائيل باختين mikhael bakhtinne) الرائدة. فقد دعا (بيير زيما) إلى سوسيولوجيا النص على حساب السياق الاجتماعي وقد انصب تفكيره في كيفيات تشييد القضايا الاجتماعية والمصالح الجماعية في المستويات الدلالية والتركيبية والسردية للنص2، ومن تم يعمد إلى تحليل الخطاب بطريقة سيميوطيقية أو أسلوبية بمنظور اجتماعي، ويمكن عدّ هذه الآليات كمنطلقات أساسية لأي تحليل سوسيونصي:3

1- إنفتاح النص، الإيحاء، والتأويل .
2- اعتبار الدلالة هي المسؤول الأول
3- اللغات الجماعية تستوعب الصراعات الاجتماعية للنصوص الأدبية
4- تمثل البنيات النصية كبنيات لسانية واجتماعية في آن واحد.
5- الاستفادة من الدراسات الكلامية والبنوية ونتائج سوسيولوجيا الأدب

انطلاقا من هذه الآليات نسعى لمقاربة النص الشعري الجزائري المعاصر الذي يتلبس بلبوس التّصوف، وهو يطمح للإجابة عن أسئلة الوجود والمصير في واقع اجتماعي متآكل بما ينبني عليه من بنيات وأبعاد عصيّة على الفهم والإدراك .

أولا: معالم التجربة الصوفية عند الشاعر "عبد الله حمادي":

يعد الشاعر (عبد الله حمادي) (10 مارس 1947) رائدا من روّاد الحداثة الشعرية الجزائرية المعاصرة، وواحدا من الشعراء الذين آمنوا بأن الأدب يموت دون التجريب المستمر، متأثرا بدعوات شعراء التجديد العربي وفي طليعتهم (أدونيس)؛ الذي يرى أن الشعر خرق مستمر للقواعد والمقاييس وبحثا حثيثا عن أسئلة الحياة والوجود والمصير الإنساني، وهي كلّها دعوات تمخّضت عقب الاتصال الثقافي بالغرب وبآدابه الشعر الفرنسي والإنجليزي على وجه الخصوص، فقد غدا البحث عن الحقيقة سؤالا جوهريا ومصيريا في تجربة كل شاعر، التي تتشكّل بعمق حسب المشاعر والحالة المزاجية بلغة تثير أكثر مما تصف، تنأى عن المعرفة وترتمي في أحضان التجارب الدينية كالوحي والرؤيا الصوفية أو التجارب الجمالية التي تنفذ إلى حقائق الأشياء في علاقاتها المتبادلة4، وهذا الضرب من المعرفة الباطنية/ الغنوصية تفارق المعرفة العلمية معرفة العقل والمنطق والحواس (اليقين الموضوعي) ولا يمكن البرهنة عليها حتى ولو اكتنهت نوعا من الكشف أو الإيضاح5 وغدت هذه الكشوفات الشعرية الجديدة للعالم المجهول/اللامرئي تقتضي معرفة موسوعية وشعورية من قبل المتلقين وإلا غدا شعرهم كما قال أبو حيان التوحيدي (يا هذا أنت الغريب في معناك)6

تندرج تجربة (عبد الله حمادي) الشعرية في إطار هذا المنحى عبر استيعاب هذه المفاهيم الجديدة للشعر العربي التي تنزّلت في بيانات جديدة وفق ما أسموه بـ (بيان الحداثة) وإن اتخذت هذه البيانات ألوية لتشكيل التجارب الشعرية، فإن تجربة(عبد الله حمادي) تنأى بشعره عنهم في جوهر تصوراتهم الفلسفية والمعرفية للإنسان والوجود والمصير، فهو لا يؤمن بما نادوا به بأن العالم لا يحكمه نظام إلهي، بل هو من صنع الإنسان، فهو مقياس كل شيء وعليه أن يعيد بناءه على صورته على نعت ما نادى به الفيلسوف الألماني (نيتشه nitcha) إنهيار المطلق7 ، وإذا كانت نقطة الانطلاق في البحث عن الحقيقة لكشف عالم مجهول نقطة التقاء أساسية بين التجربتين الشعريتين العربيتين؛ التجربة الشعرية الميتافيزيقية والتجربة الشعرية الصوفية، فإن التجربة الشعرية الميتافيزيقية ترى أن الحقيقة تظل مجهولة وعليه يجب البحث بما تقدمه الحضارة الغربية المتوسطية من أجوبة ومشروعات على مدار الأزمنة الغابرة، فإن التجربة الشعرية الصوفية ترى أن الحقيقة مبثوثة في جيوب التجارب الصوفية العربية القديمة، ومن ثمة تغدو هذه السمة شرطا مائزا بين التجربتين، فلتجأ شعراء الصوفية تقمّصا واستلهاما لتجارب كبار الصوفية العربية وآمنوا أن الرّوح مفتاح الوجود الإنساني في محاولات شعرية جادة ذات معنى مزدوج تربط الماضي بالحاضر من جهة، وتحيل إلى ثرائه وحيويته من جهة أخرى، لتبقى مرجعا زاخرا بالأجوبة الأنطولوجية الكبرى المتستعصية على الفهم والإدراك. فاستهل مشواره الشعري في السبعينات بـ (ديوان الهجرة إلى مدن الجنوب (1981)) وقد انطلق انطلاقة رومانسية لم ينفك عن موضوعة (الغربة والحنين) لوطنه ترجمة لما عاشه من فقد وهو يعيش بعيدا في إسبانيا لمواصلة تعليمه العالي ثم تأتي تجربته الشعرية الثانية بـ (قصائد عجرية (1983)) التي تعدّ فتحا جديدا في كتابة الشعر الجزائري الجديد

تشكيلا ورؤيا بحثا عن عالم فنيّ وقد منح من التجربة الصوفية تمثيلا واستلهاما ليكون الشعر فاتحة العقول، إذ تمثل بدايات تفجير مسار القول وأفقه على حدّ تعبير (أدونيس)، عبر نحت أشكال فنيّة جديدة كالتفعيلة والنثر واستيعاب آليات الحداثة الشعرية والامتياح من تجارب الصوفية كالحلاج ورابعة العدوية ومحي الدين بن عربي وابن الفارض والنّفري والتوحيدي بتفجير طاقات اللغة وإعطائها دلالات جديدة لم تكن موجودة فيها بحثا عن المطلق والمجهول واللامرئي فبرزت تلويحات صوفية غامضة ومبهمة تنم عن معرفة صوفية منها (القنديل، مشارق الأنوار، القنديل الأخضر، الأجنحة النورانية...) تلوك موضوعة الغربة السياسية والاجتماعية ومن ثمة تطرح فكرة (الحب الإلهي) خلاصا وحيدا للإنسان من احباطاته وأزماته.

ثم تنزلت تجربته الشعرية الثالثة (حوار مع النسيان) باللغة الإسبانية (1979)، والرابعة (تحزب العشق يا ليلى (1985)) التي يعدّها النقاد مرحلة تأسيسية للخطاب الشعري الجزائري المعاصر كونها استوعبت آليات التشكيل الجمالي الشعرية الجديدة في التعبير عن التجربة وصوغها صياغة فنيّة متميزة، عمّقت الإحساس بضرورة تجاوز إكراهات الواقع عبر الرؤيا (الحدس الصوفي) والشطح (التحام الباطن مع الظاهر) لمعانقة المطلق، لأن الشاعر في لحظات إبداعه هو في حالة فناء فيما هو فيه، في حالة انسحاب من عالمه إلى عالم آخر يكاد لا يحس فيه إلا ذاته،[8] في تجارب صوفية فريدة تمثلها قصائد (قراءة في كتاب الإنسان الكامل) التي تتحرك في فلك الله/الإنسان الإنسان الكامل وهي أسئلة استهوت العديد من المتصوفة العرب، و(قصيدة تحزب العشق يا ليلى) وقصيدة (تباعدات جلال الدين الرومي) وهي قصائد طرحت موضوعة (الحب الإلهي) وتؤكد نزعة الشاعر إلى الرفض والتمرد والثورة على الواقع المأساوي ثورة الإنسان على نفسه وواقعه وكل معطّل من معطّلات الحرية خلاصا أبديا من أزمته وخزنه وقلقه واحباطاته.

ثم تجربته الخامسة (البرزخ والسكين 1998) الذي يسعى من خلاله إلى النّفاذ بتجربته الصوفية إلى مجاوزة الرّاهن واليومي والمعاش والمترهل في حياة الإنسان الجزائري والبحث عن عالم بديل حيث التجاوز والتعريج في فضاء الملكوت الأعلى والفناء في المطلق.

وفي تجربته الأخيرة (ديوان انطق عن الهوى 2011) تكون التجربة قد استوت وتعمّقت ليمتاح الشاعر من معاول التجربة الصوفية بغية تجاوز الراهن المترهل والمبتذل عقب الإخفاقات المتتالية في التجربة الديمقراطية التي عاشها وطنه، ويؤكد مرة أخرى أنه يريد أن يصيب الفردوس الأعلى باعتبار أن الرّوح أساس فتح الوجود في تجربة شعرية رائدة، فكما توحي دلالة عنوان الديوان تعبير فردي ورؤية ذاتية محضة عن الذات والعالم ومعرفة باطنية/غنوصية/عرفانية تقتضي الستر والكتمان في عرف الصوفيين "لا يعرفها غير أحباء الله لذلك كانت هذه الأسرار ممّا يجب سترها عن العامة وعدم كشفها إلا لأهل الطريق من الأولياء خوفا عن العامة من الافتتان بها وفهمها بغير المقصود منها"9، ممّا قد تجنيه على صاحبها كما جنت على الحلاج الذي صنع حتفه عندما باح بكلماته، وهي تجربة تعاش ولا توصف؛ ومن ثمة لا يمكن استيعابها إلا بالانغماس فيها والإطلالة على

عوالمها التخييلية بما تنطوي عليه من غرابة ودهشة وتغييب الوعي للتعريج في أجواز اللامرئي عبر مقامات وكله محبة وشوق ورهبة وأنس وفناء في الله جوهر العالم، لأن في ذلك اليقين والوجد يشعر أن للحياة معنى وأن هناك ما يساعده على أن يقضم قطعة أخرى من قطع الحياة التي له10، ومن ثمة يكون القارئ أمام تجربة شعرية مبهمة وغامضة يستعسر فك شفراتها إلا بالمعايشة والتصديق، وإلا تبقى نصوصا شاردة تصدّق ما قاله التوحيدي (قولي لا شرح له، وسمعك لا فتح له)11، مما يشهّي عمليات التلقي ويستحثه على ضرورة امتلاك كفاءة تأويلية لاحتواء فيوضاته الباطنية وإنتاج دلالاته الشعورية والمعرفية.

ثانيا: جماليات الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر:

اتخذ شعر شعراء الحداثة العربية المعاصرة ثلاثة اتجاهات أساسية، اتجاه وجداني آثر التموقع على الذات ولم يقو على مواجهة غلواء الواقع العربي فراح يأسو جراحا خلفتها لهم ويلات الحياة، واتجاه ثان واقعي- قومي - ليبيرالي آثر الخروج من قوقعة النفس وارتمى في أحضان الواقع محاولا رأب صدوع بيئة متخلفة بعد خروج الاستعمار وإفلاس الطروحات النّهضوية وتفشي الهزائم الوطنية والقومية والتقديمة، واتجاه ثالث حداثي رفض الواقع القائم وأعلن الرفض والتمرّد وراح يشيّد واقعا بديلا باحثا فيه عن ذاته وعن آفاق جديدة لتحقيق النهوض الحضاري والإنساني متأثرا بالمناخ الثقافي الغربي من فلسفات وأفكار الأدباء الغربيين.

لقد آمن هؤلاء الشعراء بضرورة تدمير المقاييس الشعرية القديمة كونها لم تعد قادرة على استيعاب متغيرات الحياة العربية الجديدة وصياغة أجوبة لأسئلة وجودية وكونية ومصيرية مقتفين في ذلك أثر شعراء الحداثة الغربية، وما طرحته من محمولات فلسفية ومعرفية غيرت كثيرا من مفاهيم الشعر ووظائفه حتى غدا رؤية فلسفية للحياة والوجود.

لقد اعلنت هذه التجارب الشعرية الجديدة - وهي مشدودة إلى المشروع القومي الاجتماعي والسياسي الذي قاده (أنطوان سعادة/ أحد مرجعيات جماعة شعر)- التي انبثقت من رحم الحداثة الغربية تعارض الأنطولوجي بين الإنسان والمجتمع، يجسدها التعارض الحضاري بين حضارة الصحراء والرمل، وحضارة الرمل والماء؛ الأولى حضارة مرفوضة، والثانية مأمولة، وهما رمزان لحضارتين متعارضتين الحضارة الصحراوية العربية والحضارة الغربية المتوسطية12.

ولعلها أبرز سقطات شعراء الحداثة الغربية حين اتخذوا من الرؤيا أداة لكشف هذا المجهول، أي الانطلاقة من الذات مجردة من أي تصور قبلي إلا أنها تنطلق من تصور نظري وأيديولوجي قبلي تحدثا عنه نثرا وصاغوه شعرا، وأن أشعارهم ظلّت صدى لفكرة واحدة إعلان القطيعة مع ما تم انجازه13.

اتخذت القصيدة العربية الجديدة اتجاهات عدّة بتعدد التوجّهات السياسية والخلفيات الفلسفية والمعرفية فمن القوميين العرب من يرفض هذه الفلسفة ويرى أن فلسفة العالم العربي لا توجد في أوهام الوجودية أو في

بعدها السارتري القومي أو بعدها الهايدجري، وإنما في فلسفة تعكس إيماننا بالعلم وبإقدام التاريخ الإنساني وبالجهود والانتصارات والقيم التي تعكس كفاحنا المستمر ضد قوى الاستعمار والرجعية14.

سعت الحداثة الشعرية العربية إلى الموائمة بين آليات الشكل الغربي في التعبير وأساليب الصياغة العربية القديمة وحاولت الخروج من شرنقة الغنائية ومعانقة الموضوعية الشعرية، وذلك ببعث أشكال جديدة لم تكن معهودة في الذائقة الشعرية العربية عبر تجريب بداية للأقنعة استدعاء (إسقاط الماضي على الحاضر) أو استلهاما (إسقاط الحاضر على الماضي)15، لكنها سرعان ما تمثلت أشكالا جديدة انصرف عنها الشعر العربي القديم كالشعر القصصي والمسرحي رغبة في كتابة قصيدة متكاملة؛ فاتخذت من آليات السرد أساسا للبناء الشعري الجديد كالحكاية والحوار والصراع والعقدة وغيرها من ممكنات السرد في تظفير فنيّ يزاوج بين الشعري والسردي في مزيج فني مركب.

وتعمّق الإحساس بضرورة إيجاد طرائق تعبيرية جديدة لاستيعاب تساؤلات الذات وممكنات الراهن بمتغيراته الحضارية المتسارعة عند شعراء الرفض والتّمرد والثورة الذين رفضوا الواقع وحاولوا تجاوزه. وتوسلوا بالتجارب الصوفية العربية كما تردّدت في تجارب الحلاج ورابعة وابن عربي وابن الفارض والتفري والتوحيدي وغيرهم ممن آثروا التزهّد والتنسّك والانقطاع لعبادة الله وحده ممتثلين لقوله تعالى:" واعبُد ربَّك حتى يأتيكَ اليقينَ"آية16، واتخذوا في الكتابات الشعرية الصوفية العربية المعاصرة امكانات دلالية جديدة ومرموزات متعددة تحمل معاني فكرة الاستشهاد، روح الثورة، الإخلاص في الحب، التضامن الكامل مع المضطهدين بسبب عقائدهم ومع الفقراء وضحايا الاستغلال.[17] .

وأتاحت هذه التجربة الصوفية –كما مهّد لها أدونيس 1965 بديوان التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار-18 فرصة الخلاص من اليأس وخيبات الأمل إزاء الإخفاقات العربية والقومية والتقدمية كما يرى (إحسان عباس)19 .

وكانت التجربة الصوفية بما تكتنزه من زخم معرفي وفلسفي أنموذجا بارزا لتجاوز الواقع الكابي بعد خراب العقل والتوكيد على الباطن لكشف عالم مجهول، لا مرئي؛ ذلك أن الصوفية غربة روحية واعتزال العالم البشري رغبة في كشف الحقيقة وكشف ما وراء الطبيعة20 عبر الرؤيا (الحدس الصوفي) والشطح، ليستطيع النفاذ إلى الحقيقة الباطنية وكشف ما تخبئه المرئيات بلغة ذاتية وشخصية جدا وغامضة كالعالم الداخلي الذي تتجلى بها، توحي أكثر مما تقول، وتزخر أكثر مما تقرّ به21. تتجاوز الوصف والإخبار التي تقدم شيئا معلوما تبرزه أمام الذاكرة أو تنبّه الذاكرة إليه أما لغة الصوفية لغة كشف تحمل معاناة البحث والتساؤل22.

وقد برز توجّهان في كيفيات النّهل من معين التجربة الصوفية في المتون الإبداعية العربية؛ أولاها يمتح من التصوف على سبيل التوظيف الفني الجزئي لبعض مركباته الروحية والفكرية والفلسفية، والثاني تقمّص كلي

للتجربة لذلك ففي مثل هذه التجارب الإبداعية ضرورة المعايشة والفهم وتحقيق الكفاءة التأويلية لفك شفرات الرموز ومحاولة إنتاج ما تخفيه من دلالات كامنة.

ثالثا: جماليات الرمز الصوفي في غلاف الديوان:

1- قراءة في العلامات المصاحبة:

تُعدّ العلامات المصاحبة للعنوان دوالا مساعدة على القراءة والتحليل، فاللون الغالب على الغلاف أحدّ أهمّ العلامات القرائية التي تقوم عليها الدراسات المعاصرة؛ فالأزرق لون الغلاف الطاغي، يشي بلون السماء وزرقتها الصافية وجذوره ممتدة عبر الفكر العربي الصّوفي العربي القديم ليحيلنا إلى "لون الخرقة الصّوفية التي اشتهر بها متصوفة بغداد في العصر العباسي "23، ليتقاطع عبر امتداداته التاريخية، الثقافية والميثولوجية في قصيدة (عبد الله حمادي) بزرقة الخرقة البغدادية الصوفية القديمة، على اعتبار أنّ الصّوفي رمز الطهارة والتنسك والعرفان بقربه من الله وعبادته في أجواء توحي بالقداسة والحلول والامتزاج (حلول الله في روح المرء) "وهي صفة تأتي من تمكّنهم من العلوم الشرعية كالحديث، والفقه، ويتميز المتصوفة بالزّهد والورع وبكونهم يوضعون فوق الانتماءات الاجتماعية المعروفة كالقبائل والطوائف بالنظر إلى كراماتهم وأدوارهم الاجتماعية المختلفة، وهو ما يجعلهم في موقع وسط بين المجتمع والدولة ويضيف أنّ إشعاعهم وهيبتهم انعكاس على زواياهم وأضرحتهم لدرجة التماهي مع المجال،24 وعلى هذا النحو تنزّل ديوان (عبد الله حمادي) (أنطق عن الهوى)، مرتديا زرقة اللباس الصوفي بتدرج يحيلنا إلى رغبة الشاعر في احتضان التجربة الصّوفية والانغماس الحاد فيها، وقد تلاشى اللون وزرقته بعد تشبع الذات الشاعرة بما هو دنيوي مدنس وتشبثت بما هو إلهي مقدس، ليغدو المتصوف/الشاعر في القصيدة صوتا مخلّصا لشعبه الذي بهضته الحياة وأثقلت كاهله بعد استشراء الفساد السياسي والاجتماعي في مجتمعه، إنّ اللباس وهو أحدّ المكونات الخارجية، يحمي الجسد من العيوب رمز لبداية التغيير الداخلي فاختيار الشاعر لهذا اللون بما يمتلك من دلالات صوفية غلافا لديوانه يرمز بصورة مباشرة أنّ الديوان رسالة ذوقية، شعورية، روحية و غنوصية محاولة لتطهير الذات والجسد على حدّ سواء من الرذائل وتغيير حياة الإنسان من الداخل والخارج معا، بدء من الشكل الخارجي للإنسان إلى ما هو داخلي/روحي تبعا لقوله تعالى:" إنّ اللهَ لا يغيرُ ما بقوم حتى يغيرُوا ما بأنفسهمْ"25 . ليتلبس الديوان (أنطق عن الهوى) لباسا أزرق وقد تدرجت زرقته من سماوية فاتحة في الأعلى إلى داكنة في أسفل الصفحة كما في معارج السالكين كلما غاصت فيه العين القارئة، يقوي مدركات القارئ بمدى تعالق وانسجام صورة الغلاف الأمامي -كمكون خارجي -بالمتن النصي /القصائد وينعش دلالاته منذ البداية، نكون حينئذ أمام تجربة شعرية/ صوفية في آن معا، وقد تطهرت الذات الشاعرة من أدران كل ما هو دنيوي مدنس وارتمت في كل ما هو نوراني مقدس أو في حضرة الملكوت والأنوار أو الكون الأزلي حيث لا وجود إلا وجود الله سبحانه وتعالى وحده، ويقوي الاعتقاد بتقمّص الشاعر للتجربة الصوفية التي تعتمد على فكرة "كون

الله ليس إلها منفردا عن مخلوقاته بل إنّه يمثل قدر البشر المحتوم الذي سيذوب فيه البشر وأنّ على الإنسان أن يبحث في أغوار نفسه ليدرك الله "سرّ النفس "26.

2- جماليات اللوحة الفنية للغلاف:

تنزع الفنون التعبيرية المعاصرة نزوعا جليا نحو التغيير، تجاوز الذات والآخر/ المجتمع وتتجشم عوالم مؤكد فتحها تنتصر لإنسانية الإنسان وحقه في الحياة، وقد استعان ديوان (عبد الله حمادي) (أنطق عن الهوى) بالفن التشكيلي(الرسم) لإبلاغ رسالته للمتلقي، فإذا كان اللون الأزرق دالا على التفاؤل بعالم جديد فقد كان مشفوعا بصورة لطائر (السيمرغ)، ليصبح الغلاف الأمامي بصوره وألوانه البهية الممتزجة ملمحا فنيا ودلاليا ومعرفيا بارزا للولوج إلى عالم الديوان، وزاده دلالة وعمقا امتدت جذوره إلى التراث العربي الإسلامي الصوفي القديم في رحلة البحث عن معنى الحياة والوجود، متجاوزا ذاته، وذوات الآخرين المعبر عنها /الشعب الجزائري ثانيا.

تحتفي العديد من الدواوين الشعرية العربية المعاصرة التي أعلنت الثورة والرفض والتمرد والرغبة في تجاوز اليومي والمألوف والمبتذل غبر الانغمار في التجربة الصوفية -على اعتبار أنّ "التصوف فلسفة حياة تهدف إلى التّرقي بالنفس الإنسانية أخلاقيا، وتتحقق بواسطة رياضات معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى والعرفان بها ذوقا لا عقلا وثمرتها السعادة الروحية ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية لأنها وجدانية، وذاتية"27 لهذا الديوان، فيحضر رمز الطير ملفوظا كان أم صورة تشكيلية بدلالات فنية متقصّدة، فطائر السيمرغ معادلا موضوعيا للذات الشاعرة أو الرائي المعاصر فهو "ملك الطيور وهو منّا قريب ونحن منه جد بعيدين، مقرُّه يعلو شجرةً عظيمة الارتفاع، ولا يكف أي لسان عن ترديد اسمه تكتنفه مئات الألوف من الحُجُب، بعضها من نور، وبعضها من ظلمة وليس لفرد في كلا العالَمين مقدرة حتى يحيط بشيء من كنهه، إنه الملك المطلق، المستغرق دائمًا في كمال العزّ28

تنجلى الرؤيا الصوفية في خضم هذه الأجواء الرهيبة المقدّسة حيث الشعور بالرهبة والدهشة التي تحيط بطائر السيمرغ، مما يثير فضول المتلقي في البحث عن وجوده وحقيقته - بحث عما هو نوراني مقدس في أفق يسوده ضبابية المشهد وعدم وضوح الرؤية، وقد عجز العقل في تحديد ماهية هذا الطائر الأسطوري العجيب رغم قدراته الخارقة في كشف ما وراء الحجب وانجازاته العلمية المذهلة في عصر العلم والتقنية، ورغم هذا الوجود السحري/الأسطوري لهذا الطائر العجيب إلا أنّ المتصوف مازال يؤمن به دون تلمسه، ما يعزز إيماننا أن هذا العالم الخفي عالم يكتنفه الكثير من الغموض والإبهام والأسرار الغامضة في ظل اتصال المتصوفة بأرواحهم بعالم خفي مبهر، وفي هالات شعورية غامضة وعصيّة على الإدراك والتفسير عبر" أحوال يتلبّس بها الصوفي ويعيشها ضمن سفره الروحي في ذلك المعراج وتتسم هذه الأحوال بالتفرّد ولا تخضع لمنوال بعينه فتكون أسرارا وفيوضا ومكاشفات تعاش أكثر مما توصف ولا يتسنى لغير السالك فهمها "29 كالمراقبة والمحبة

والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين والكشف عن الله جوهر العالم والفناء فيه ومن ثمة تدلل حضور صورة هذا الطائر في هذا المنجز الشعري الصوفي التحرر عن كل ما هو دنيوي مدنس والارتماء في كل ما هو أخروي مقدّس، أو تجاوز هذا الواقع العفن والدخول في عالم مجهول أو الأفق النوراني الأعلى إذ لا طريق إليه إلا بالتأمل فيه بالقلب والوجدان، فيجد القارئ نفسه في رحبة الأنوار والحقيقة المطلقة على اعتبار أن الكتابة الصوفية تمثل "البحث عن الحقيقة والنفاذ إلى صميم الأشياء وكشف ما وراء الطبيعة"30

يتوشح الغلاف الخارجي الأمامي لديوان (أنطق عن الهوى) في الجزء الأعلى منه بصورة طائر السيمرغ الذي بدوره ينقسم إلى قسمين بفعل التدرج في اللون الأزرق للغلاف، ليومئ بذلك الامتداد لحضور هذا الطائر في عديد من أعمال المتصوفة، وإن كان في نظرهم يكتنز غموضا وابهاما؛ فهو دليلهم على اكتمال النظرة الصوفية، وهو حال هذا الديوان الذي اتّخذه منطلقا في الكتابة على سبيل المناصصة مقتفيا أثر الكتابات الصوفية القديمة للتعبير عن قضية راهنة، معرفية وغير منتهية، ترتكز على التأمل الوجداني للهروب من قساوة العالم المادي والانغماس في عالم أزلي حيث العكوف على الذات .

3- جماليات الميثاق الاجناسي للغلاف:

تقسم صورة طائر السيمرغ الغلاف إلى قسمين يعلوه كتابة اسم المبدع للديوان أولا، في إشارة واضحة إلى منزلة من نقرأ له وجدارته الشعرية، المعرفية، الفكرية والفلسفية مقوّضا دعوات (رولان بارت) في النقد النسقي بدعوته لموت المؤلف، إلا أنّ هذا الديوان يأبى إلا أن ينكتب باسم الشاعر وينتسب إليه بأحرف جلية (عبد الله حمادي)، ولو بخط رقيق مقارنة بعنوان الديوان ذاته لتنسيب الرأي لمن يستحقه وتمجيد الشهادة على عصر لم تعد الشهادة تستهويه، ويكون كتابة معلنة للرفض، الثورة والتمرد على واقع يتأكل باستمرار وينقاد بشدة نحو الهاوية، ومحاولة الإغارة على واقع بديل، مجهول لا مرئي، ممكن، هو دوما قيد التشكّل.

بعد تعيين الديوان بهذا التحديد الاسمي /العائلي ونسبته لمؤلفه، نأتي إلى القسم السفلي الذي يتوسطه عنوان الديوان (أنطق عن الهوى)، في عالم سماوي، وبخط غليظ بارز، مزج بين اللونين الأسود والأحمر كعلامة تعيينية إشهارية "فالخط المشكّل به خط مغربي أصيل.... والرّسم العثماني مرتبط بالقرآن الذي كُتب به ولا يزال مُعتَمداً في كثير من الزوايا، وتُكتب به عناوين كثير من المراسيم الرّسمية"31، وكأن به يردّد سّجلا خطابيا لنجدة عصره من موت محتوم عبر ممكنات الأمة المقدّسة -اللغة والخط كأثر تاريخي- تحقق له الثبات والديمومة والحفظ عبر القراءة والذاكرة، ويكون شهادة حيّة وصرخة مدويّة تمزّق سكون ليل طويل لم ينجل وينكتب العنوان بعد ثلاث نقاط، دالة الحذف في بداية الكلام لنكون في حضرة الغياب منذ البداية مما ينشّط ذاكرة القارئ الجمالية ويستحثها على التدبر والتأمل، ودلالة الحذف هنا أو النص الغائب إشارة جليّة على الرغبة في تجاوز ما لم يقال ويكتب "ألم يقل (بول كلودويل)" أنّ الشعر فكرة معزولة بفراغ32 فقد يكون الفراغ تاريخ

قمع أنطق الذات الشاعرة وحفزّها على الكتابة، متمثلا في فساد الواقع السياسي، وسواد الهمجية وغياب العقل والحكمة في كيفيات التعامل مع القضايا الساخنة أبرز محركاته، ورغم ما يحوطه من كثرة التأويلات إلا أنّه ينضوي على مقاصد دلالية مؤكدة استثارة لوعي القارئ وتحقيقا للجاذبية والتشويق، ويدفعه إلى ضرورة الانصات إلى هواه وبوحه، لينبثق العنوان بألفين -قطع ووصل كعلامة دالة على قطع الاتصال مع العالم الأرضي ووصل العلاقة مع العالم العلوي عبر التعريج في أجوازه راسمين طريق معارج السالكين لا يسلكها إلا من أتى الله بقلب سليم- وكأنهما العمود الأساس لهيكله وقد كتبتا باللون الأحمر القاني الذي يحمل بين جنباته دلالات الثورة والرفض والتمرد، وقد أنطقه فساد الواقع وانهياره بعد تفشي النفي والغربة والاغتراب والموت، ويتلون العنوان بخط أسود مغربي أصيل ويضعنا في رحبة الظلمة حيث حرقة الحب وجذبة الوجد والبوح والانتشاء للوصول إلى الله، عبر الانخراط في عالم مجهول، وهي عوالم الصوفية الرهيبة، ويكون صوت الشاعر هنا شبيها بالاعتراف محاولا ملامسة أسرار النفس الغامضة واستبطان أعماقها في تجربة فريدة تكون تجاوزا للذات والأخر رغبة في التطهير والخلاص وانتشالها من عالم الموجودات والارتقاء بها إلى مقامات النقاء والصفاء محبة وشوقا بوحا، اعترافا، نطقا وتعلقا بالذات الإلهية حيث مكمن الحقيقة المطلقة.

ورد عنوان الديوان بألفين والألف صوت شاك للإشباع والتأوه أما في العرف الصوفي "ليس مقصودا لهيئته وشكله ولكنه رسم يحمل مسلكا، ويصير دليلا إلى غاية الغايات، إلى مصدر الحقيقة..... حرف إشاري دال على الله .....فالألف هي الحياة، فهي رمز لحياة الله السارية في جميع الأشياء بنفسها، كما الألف سارية بنفسها في كل الحروف، حتى أنه ما ثَمَّ حرف إلا والألِفُ موجودة فيه لفظا وكتابةً33، ومن هنا تتشابه الأوضاع عند المتصوف والشاعر (عبد الله حمادي)، ليأتي اعترافه قائما على ألف يريد من خلالها فتح حياة جديدة، وكشف الله جوهر العالم والحلول فيه(حلول الله في روح المرء) وتخطي عالم دنيوي مزيف شيّده الإنسان و شوّهه، وعاث فيه فسادا، فـ"الألف إماما للحروف لأنه لا يمكن أن يسبق بحرف قبله، ورمزا به إلى الذات الخالقة"34، ليؤدي العنوان وظيفتي التعيين والمدلول في إنارة النص أو التجربة الشعرية عبر محاولة البحث عن المطلق والمجهول من خلال تقنيات الغلاف وما يتيحه من إمكانات طوبوغرافية واستيتطقية دلالة طائر السيمرغ ودلالة رسم الألفين باللون الأحمر القاني و شقّها لطريق جديدة، ينذر بصعوبته وهو يجهد في فكّ مسالكها بديلا عن واقع مادي متحجّر بعدما رفضه وتمرّد عليه، طريق طويل وشاق لا يشقه إلا صفوة من البشر الذين اصطفاهم الله من عباده، أصحاب الزاد والورع والتقوى بعد مجاهدة النفس في العالم الدنيوي وتطليق كل ملذاته على غرار ما قاله "أبو الغيث بن جميل أو بالأحرى فيما ينسب إليه خضت بحرا وقف الأنبياء على ساحله"35، لتكون غوصا في أعماق النفس، واستبطان منظم لتجربة روحية مطابقة لتجارب الصوفية، حينها نكون أمام تجربة شعرية / صوفية خارقة ورهيبة معا عصيّة على التمثل وهي تتكئ على التأمل

والتبصر في التجاوز، بعد تخلي الشاعر عن ذاتيته تماما والتعبير عن وجدان الإنسان الجزائري المعاصر في بحثه الدؤوب عن عالم جديد يحتضنه و يخلصه من الألم والغربة والضياع والتيه الذي يعيشه .

يتناص عنوان ديوان الشاعر (عبد الله حمادي) (انطق عن الهوى) مع القرآن الكريم كما جاء في الآية الكريمة :﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ آية36، تنزيها لرسالة خير البرية -عليه أزكى الصلاة والتسليم- عن الهوى ، ليحمل معنى مزدوجا إضفاء نوعا من القدسية لتجربته الشعرية من جهة ولتكون رسالته معادلة لرسالة التوحيد فكما خلّص الإسلام المسلمين من براثن الشرك والجاهلية يحاول الشاعر أن يخلص ذاته ومجتمعه من فساد الواقع وأكراهاته عبر السفر والوثب والتعريج لعالم الأفق الأعلى، واقتفاء أثر الزّهاد والنّاسكين من جهة أخرى بما يحمله عنوان الديوان (أنطق عن الهوى) من تضمين المشابهة تلخص محاولته فيما هواه أو تعلق به هروبا من واقع مرير، وهي ثمرة تجربة تلخص موقفا فرديا من الذات والعالم والوجود .

يرتبط لفظ الهوى في المعاجم العربية بالنفس وإرادتها؛ فالهوى محبة الإنسان للشيء، وغلبته على قلبه وهو ما نهانا ديننا الحنيف عنه في قوله تعالى :﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِه وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ آية37 ليتعلق هوى الشاعر بالمعبود وحاله حالٌ "عبد نظر بعينه إلى ما أنعم الله به عليه، ونظر بقلبه إلى قرب الله تعالى منه وعنايته به، وحفظه وكلاءته له، فنظر بإيمانه وحقيقة يقينه إلى ما سبق له من الله تعالى من العناية والهداية وقديم حب الله له، فأحب الله عزّ وجل"38 مما يشف أنّ الشاعر (عبد الله حمادي) يحاول أن يقدم تجربة روحية سعيا في الوصول إلى الحقيقة المطلقة، شوقا ومحبة واطمئنانا بغية كشف الله جوهر العالم والفناء فيه(حلول الله في روح المرء)، ليحيلنا العنوان بدلالاته وايحاءاته الخفية إلى عالم صوفي نقي، زكي تغياه الشاعر في بداية رحلته .

وقد أردف بعبارة (شعر) عند أسفل الغلاف يسرة محددة الميثاق الأجناسي للكتابة التي أرادها الشاعر بالبنط الصغير وباللون الأسود، تحديدا توجيها للمتلقي على أنّ ما يقرأه يندرج في نطاق الشعر ولا يعدوه ، ولما كانت التجربة شعرية فالكلام يصفو ويشف "الشعر ديوان العرب" قديما خلّد مآثرهم ووصف حياتهم في حلهم وترحالهم، وسجل انتصاراتهم وانهزاماتهم، وعبر عن آلامهم وتطلعاتهم، ووثق أخبارهم وحفظ تاريخهم، فكان ديوانا وافيا عكس نمط معيشتهم وتفكيرهم وتعاملاتهم مع ذواتهم أو مع غيرهم، وإن فارق الشعر المعاصر وظيفته النبيلة لكثير من التغيرات الحضارية التي طالت مفهومه ووظيفته، وقد غدا تعبيرا عن تجربة داخلية يتوسل بالرؤيا والحلم في كشف العالم الذي يتوق إليه هروبا من واقع منهار إلا أنّه يبقى شهادة حيّة على عصر مزّقته الهويات والتاريخ والثقافات والعقائد والايديولوجيات والتقنية وطحنته الضغائن والصراعات في حروب مميتة رغبة في امتلاك العالم وفرض السيطرة والهيمنة عليه .

رابعا: جماليات الرمز الصوفي في ديوان "أنطق عن الهوى":

تسعى هذه المقاربة تقصّي جوهر هذه التجربة الشعرية واحتواء أبعادها الدلالية والشعورية والمعرفية عبر محاولة الغوص في أعماق النفس تدبّرا وتأملا بهدف الوصول إلى دلالاتها الحقيقية، وهي تقدم نفسها ضمنا كتجربة شعرية/صوفية معا تعمد إلي تقويض دلالات اللغة وإفراغها من محتواها المتداول وشحنها بدلالات جديدة لم تكن موجودة فيها عبر طاقات التخييل حتى صارت خطرات شعورية تجهد إلى رفض الواقع المرئي ومد جسور عرفانيّة للتحليق في عالم جديد أو الأفق النوراني الأعلى، وتنطلق هذه المقاربات من منتخبات لبعض قصائد الديوان نستطيع الوقوف عبرها على ما حملته من رؤية صوفية وهي تحاول أن تخترق الواقع الجزائري المعاصر في ابتذاله وتعرية علاقاته الخفية وتفاصيله المعقّدة بغية تقويضه وهدمه لتبني على أنقاضه واقعا جديدا ينتصر لإنسانية الإنسان وحقه في الحياة، حتى غدا عالما تخييليا وجماليا ومعرفيا يهرّب ما هو لابد في الرّدهات المظلمة واشراقات النهار لبناء وعي إنساني جديد يحتضن الحياة والوجود كل ذلك وهو يعتمد على طاقات اللغة ويتوسل بإمكانات الحلم والتخييل لبلوغه فـ"الشعر خطاب بلاغي يمنح من سياقاته ومقصديّاته التي تنهض على التخيل والانزياحات من أجل التأثير والإقناع..."39.

1- قراءة في العنونة الشارحة لقصائد الديوان:

لقد استأنس ديوان (أنطق عن الهوى) لـ(عبد الله حمادي) بالاستهلالات والاقتباسات، حصنت من مقصديّة المتن الشعري ف (كتاب الجفر" وداؤد منذ وتستكثر") و(كاف الكون" حاشية يا امرأة من ورق التوت") و(طقوس خزمية) من قل نصيبه من العقل كثر نصيبه من الحمق فأكل الدنيا بالدين وغلب عليه اللواط ونزق السحاق" الإمام المجمجم) و(جوهرة الماء" كتبت هذه القصيدة بين الأرض والسماء وبعد زيارة قبر الشيخ محي الدين بن عربي في حي المهاجرين بدمشق بعد صلاة المغرب في 4 يناير 2003) و(ستر الستور" وجودي أن أكون بلا وجود"....)وغيرها من القصائد المدبّجة برؤية قلبية إشارية عبر تجارب روحية، وكل الحمولات التي رافقت العنوان وإشاراته وتنبيهاته، وهو يستهل هذه الرحلة الخيالية متحكما في تقنيات السرد الزمني بإيقاعاته ومدده عبر آليات الاستباق والاسترجاع، ومحلّقا في أجواز فضائية متخيلة، لتشكل مجتمعة بنية شعرية محكية محكمة، تتجاذبها ثلاثة أقطاب (الراوي/الشاعر والمروي/الديوان، والمروي له/المثقف/ القارئ)، معلنة أنّ هذه الكتابة لا تعترف بثنائية(شعر/ نثر) التي أقرّها النقد العربي القديم، لتكون إغارة متواصلة على حدود الأجناس الأدبية، تنحت كتابة جديدة فيما أسماها أدونيس بـ(الكتابة) كل ذلك رغبة في بناء عالم تخييلي يستمد وجوده استيطيقيا عبر الاستثمار في كل الأشكال الفنية القديمة المتاحة ومعرفيا عبر الحفر في التجارب الاجتماعية العامة والخبرات الثقافية المتنوعة، وهذا جلي في مختلف قصائد الديوان لـ(عبد الله حمادي) نلمس ذلك بإعادة قراءة الموروث الإبداعي السردي العربي الديني والصوفي والشعبي الشفوي والمدوّن استدعاء أو استلهاما، في محاولة لكتابة شكل شعري جديد، لاستيعاب فوضى الواقع وإضفاء شكل على شيئ لا شكل له، وإعطاء معنى للحياة والوجود، قائلا "إذا كان الشعر في حد ذاته كينونة لا تعرّف، ولا يمكن إدراك كنهه

لأنه ضرب من المستحيل، وألق في التجلي الرابط بين البدايات والنهايات والرافض لقانون المد والجزر، لأنه برزخ يمتد بين الذي كان وسيكون.....هو اللحظة الهاربة من التحديد ومن التشيؤ فلا هي بالتلاشي ولا هي بالمحدود..."40، وهو مفهوم يندرج ضمن دعوات أدونيس الحداثية ومن ثمة تعلن الذات الشاعرة منذ اطلاقاتها الأولى رفضها لعالم الموجودات وانخراطها في عوالم مجهولة يستحيل فكّها، لكنّها ممكنة – في رحلة البحث عن الحقيقة المطلقة، حقيقة الحياة والوجود، وهي رحلة سبقتها العديد من رحلات المتصوفة كما هو جلي في الفكر العربي القديم كتجارب الحلاج ،النفري، ابن عربي السهروردي، ابن الفارض أو الراوندي وغيرهم كثير ممن لا يتسع النطاق لذكرهم، ومن لم يدخل من باب الشريعة لن يستطيع الدخول إلى باب الحقيقة كما يقولون .

2- جماليات البوح الصوفي في قصائد الديوان:

إنّ انخراط الذات الشاعرة في التجربة الشعرية العربية الحداثية وإيمانه بحركية الحياة وتعدد التجارب الإنسانية، بتعدد الأفراد وانضوائها على ما هو جوهري وإنساني خالد، ومن ثمة تتعدد أشكال التعبير عنها في ظل انتفاء الحقيقة المطلقة التي تتعدد بتعدد الأشخاص أنفسهم، فلن تكون التجربة ذا قيمة معرفية وجمالية إلا إذا عبرت عن الخفي والمجهول والشخصي في غناها وتعددها41، لذلك نجد الشاعر الجزائري (عبد الله حمادي) ينغمس في غمرة التجربة الصوفية عبر عكوف على الذات وتغييب الوعي بالشطح بعد خيبة أمله في الواقع وينشد الخلاص الإنساني عبر رحلة روحية لكشف الخفي والمجهول مستعيرا أدواتها ومستلزماتها، وتنطلق الرحلة عبر الكتابة/ قصائد ديوان (أنطق عن الهوى) بمسوغات صوفية لتطليق الواقع الذي أفلس سياسيا وتاريخيا عبر مساءلة الراهن الجزائري المعاصر ووصوله في لحظة تاريخية فارقة إلى مأزق حضاري رهيب عقب إفلاس كل الأطروحات السياسية الوسطوية للخروج من شرنقة الأزمة بعد سقوط الحزب الواحد وإعلان التعددية السياسية وإلغاء نتائجها وما نجم عنها من تبعات مأساوية لتكون إكراهات هذا الواقع السياسي والاجتماعي العفن منطلقا لخوض تجربة صوفية رفضا، ثورة وتمردا عليه ومصوغا لتحمل وعثاء السفر عبر المجهول، انتشالا للذات من جحيم الآخرين وتسكتن الروح في رحبة الملكوت الأعلى تخليصا لها من أوجاعها ومحاولة لإعطائها حياة جديدة ذات معنى، رحلة ذوقية عرفانية عبر النفاذ إلى أعماق النفس، تعمد إلى تفجير طاقات اللغة وهدم مدلولاتها ومدها بدلالات جديدة لم تكن موجودة فيها، وتستند على الرؤيا بوصفها معرفة ذاتية فريدة للإنسان والوجود مناقضة للمعرفة المشتركة والمحصلة في النهاية تجربة شعرية/صوفية مركبة جمعت في جنباتها مقتضيات التصوف من تأمل وخلوة واعتكاف وانقطاع إلى الله وحده وزهد عن الدنيا وملذاتها سعيا للبحث عن الحقيقة أو معنى الحياة والوجود في تجربة شعرية غنية ومتميزة .

ينطلق الشاعر (عبد الله حمادي) في تجربته الكتابية في هذا الديوان بقصيدة عنوانها (كتاب الجفر) استدعاء مباشرا للموروث الثقافي و الديني العربي الإسلامي، الذي قيل فيه: "كتاب "الجفر" كتاب زور وبهتان وشعوذة وادعاء علم الغيب، ذُكرت فيه أمور غيبية مستقبلية، من تغير دول ووقوع حروب وكوارث

وغير ذلك ينسبه الشيعة الرافضة الكذبة تارة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتارة لجعفر بن مُحَمَّد الصادق رحمه الله، يتوارثونه فيما بينهم جيلا بعد جيل، زعموا أنه مكتوب في جلد ماعز أو جلد ثور"42. في محاولة الاستعانة بالماضي وربطه بالحاضر، وينظر إليه نظرة عصرية عن طريق تأكيد نقاط الالتقاء المشتركة محاولا استنساخ عالم تخييلي صوفي مواز لعالم الكتاب – وما ورد فيه من نبوءة أصبحت يقينا شائعا ظهرت في بلاد الرافدين، تتنبأ بمصير العالم المستقبلي وتتجشم فك طلاسم عالم غيبي، تخلص الناس من وطأة الشك واللايقين - لتكون قصيدة مساوقة لرؤية صاحب الكتاب وإن كانت في سياق تاريخي مغاير يرجى من ورائها تبصّر الراهن الذي يعيشه ومآلاته، لتكون خلاصا إنسانيا من حمأة الرذيلة المستشرية في عالمه المادي.

وتنتهي الرحلة في هذا الديوان بقصيدة (أنطق عن الهوى) وكأنّها عود على بدء تلوك موضوعة الشاعر / الرائي/ النبي، المخلص لمجتمعه من ورطته الحضارية، وهو سؤال محوري في تاريخ الجزائر المعاصرة، بعد تفشي العنف والعنف المضاد جرّاء إعلان التعددية السياسية وإلغاء نتائج الحسم الشعبي وما تلاها من تبعات مأساوية، في واحد من أقسى المراحل التاريخية التي عاشتها الجزائر المعاصرة لافتة العديد من الأقلام المبدعة شعرا وسردا بحثا عن الخلاص الإنساني، وتشيد القصيدتان -الأولى والأخيرة- عالمها الشعري على الرمز الصوفي (المرأة / الكون) كمنطلقين أساسيين لفهم وتمثل التجربة الشعرية الروحية وعديد الرموز الأسطورية في محاولة البحث عن أجوبة شفافة لأسئلة الحياة والوجود .

تحاول هذه التجربة الشعرية استيعاب متغيرات الواقع استيعابا جماليا وشعوريا ومعرفيا عبر الخروج عن المألوف الشعري وكتابة تجربة مفارقة متمثلة لبيانات الحداثة الشعرية العربية/ دعوات أدونيس تحديدا بأن يحتل الشعر مقام الفلسفة قديما ويكون طوق نجاة و فتحا لعالم جديد، و قصيدة (أنطق عن الهوى) تؤكد هذا المنحى رافعة مقولة السيد المسيح من "ضيّع نفسه من أجلي وجدها"43 وهي تقدّم نفسها كخلاص روحاني من حياة تنقاد بشدّة نحو الهاوية .

الخاتمة و النتائج:

نستطيع القول إن التأمل الجمالي للرمز في ديوان "أنطق عن الهوى" يجد أنه قد:

1- شقّ طريقا جديدا في مساءلة الواقع ومواجهة اكراهاته مقتفيا أثر بعض شعراء الحداثة العربية الذين أعلنوا الرفض والتمرد والثورة على الواقع الذي تآكل.

2- نشد آفاق جديدة بحثا عن خلاص للذات في عالم مسكون بالموت والعدمية واللامعنى، ونحت لنفسه طريقا شقّها من قبله الكثير من المتصوفة العرب الذين اعتنوا بالشأن الروحي والأخلاقي في التراث العربي الإسلامي واعتبروا الروح مرتكزا يفسّر حقيقة الوجود.

3- عالج الديوان موضوعا جوانيا (تراثيا) معقّدا وشائكا باستلهام تجارب من التراث الصوفي العربي القديم (علم التصوف الذي اتّخذ مسميات كثيرة علم الباطن علم الأسرار، علم القلوب، علم الأحوال والمقامات، علم المكاشفة، علم السلوك، علم الطريقة) في دعوة صريحة للالتفاف حوله وتقصّي أبعاده

4- ترسيخ التجربة وإعطائها بعدا كونيا وإنسانيا خالدا والتعرّف على نزعاتها واستلهام تجاربها والانفتاح على آفاقها.

هوامش:

1- جمال محمّد محب، الشطح الصوفي مصدره وتأويله، 12 نوفمبر, 2020، تم الاسترداد من note notes screen in facebook.com

2- حبيبي خديجة، إشكالية المنهج السوسيونصي/نقدي بين بيير زيما وكلود دوشي؛قراءة تحليلية نقدية في المنهج والمفاهيم والآليات، مقال ضمن مجلة المعيار، جامعة تيسمسيلت، المجلد 12، ع2، ديسمبر 2021، ص219

3- المرجع نفسه، ص 224.

4- علي المتقي، 2009،القصيدة العربية المعاصرة بين هاجس التنظير وهاجس التجريب، ط1، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، المغرب، ص 33.

5- م ن ، ص 38

6- عبد الكريم برشيد ،2014، التأسيس والتحديث في تيارات المسرح العربي الحديث، دبي الثقافية(102)،ص 220.

7- على المتقي، 2009، القصيدة العربية المعاصرة بين هاجس التنظير وهاجس التجريب، ص 36.

8- عبد الرحمان محمّد القاعود ، 2002، الإبهام في في شعر الحداثة،ط1، الكويت، مطابع السياسة، ص 38

9- حسن الشرقاوي، 1987، معجم ألفاظ الصوفية، ط1، القاهرة، مصر، شركة مختار للنشر والتوزيع، ص 173.

10- علي عقلة عرسان، 1981،الظواهر المسرحية عند العرب، مكتبة الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ص 180-181.

11- عبد الكريم برشيد ،2014، التأسيس والتحديث في تيارات المسرح العربي الحديث، دبي الثقافية(102)، ص 220.

12- على المتقي، 2009، القصيدة العربية المعاصرة بين هاجس التنظير وهاجس التجريب،ص 257

13- م ن، ص 258.

14- م ن ، ص 248

15- خليل الموسى،2003، بنية القصيدة العربية المعاصرة المتكاملة،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا،ص 212.

16- القرآن الكريم، برواية ورش ين نافع مؤسسة الديار المقدسة للطباعة والنشر.

17 - س موريه، 2003، الشعر العربي الحديث1800-1970 –تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي، تر: شفيع السيد، سعد مصلوح، دار غريب، القاهرة، مصر ، ط1،ص 421

18- س موريه، 2003، الشعر العربي الحديث1800-1970 –تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي، ص 41.

19- إحسان عباس،1978، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، الكويت،ط1، ص 208.
20- عبد الرحمان مُحَمَّد القاعود ، 2002، الإبهام في في شعر الحداثة ، ص 37
21- على المتقي، 2009، القصيدة العربية المعاصرة بين هاجس التنظير وهاجس التجريب،ص80
22- عبد الرحمان مُحَمَّد القاعود، 2002، الإبهام في شعر الحداثة، ص44
23 - عبد الغاني خشة، الغلاف ومضمرات التصوف في "أنطق عن الهوى" لعبد الله حمادي، جوان, 2012، تم الاسترداد من http ://www.Revues.Univ-Ouargla
24 - القرآن الكريم، برواية ورش ين نافع مؤسسة الديار المقدسة للطباعة والنشر.
25 - عبد الرحمان بدوي، الحسين بن منصور الحلاج، مقال منشور بتاريخ: 2020/06/18،arabia 21.com .
26- عبد الكريم بن هوزان القشيري، 1441ه، الرسالة القشيرية، ط1، بيروت، لبنان، 1414ه، دار الجيل، ص 123.
27 - عبد الغاني خشة ، الغلاف ومضمرات التصوف في "أنطق عن الهوى" لعبد الله حمادي، جوان 2012، تم الاسترداد من http ://www.Revues.Univ-Ouargla
28 - أحمد القاسمي، تعرف إلى خصائص التصوف الإسلامي ونشأته وتجلياته، جوان, 2012، تم الاسترداد من arabia .21.com
29 - عبد الرحمان مُحَمَّد القاعود ، 2002، الإبهام في في شعر الحداثة ،ص149
30 - عبد الغاني خشة، الغلاف ومضمرات التصوف في "أنطق عن الهوى" لعبد الله حمادي،جوان, 2012، تم الاسترداد من http ://www.Revues.Univ-Ouargla
31 - عبد الرحمان مُحَمَّد القاعود،2002، الإبهام في في شعر الحداثة، ص253
32 - عبد الغاني خشة، الغلاف ومضمرات التصوف في "أنطق عن الهوى" لعبد الله حمادي،جوان, 2012، تم الاسترداد من http ://www.Revues.Univ-Ouargla
33 - مُحَمَّد بنعمارة، 2001،الاثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر،ط1، الدار البيضاء، المغرب، المدارس للنشر والتوزيع. ص49
34 - مُحَمَّد جمال محب، الشطح الصوفي مصدره وتأويله،12 نوفمبر, 2020، تم الاسترداد من note notes screen in .facebook.com
35 - القرآن الكريم، برواية ورش ين نافع مؤسسةالديار المقدسة للطباعة والنشر.
36 - القرآن الكريم، برواية ورش ين نافع مؤسسةالديار المقدسة للطباعة والنشر.
37 - عبد الغاني خشة، الغلاف ومضمرات التصوف في "أنطق عن الهوى" لعبد الله حمادي، جوان, 2012، تم الاسترداد من http ://www.Revues.Univ-Ouargla
38 - مُحَمَّد مرزاق، 2014، تفاعل أجناس الخطاب"رسالة الغفران" أنموذجا دراسة نقدية،ط1، طنجة، المغرب، الراصد الوطني للقراءة والنشر، ص43
39- عبد الغاني خشة، الغلاف ومضمرات التصوف في "أنطق عن الهوى" لعبد الله حمادي، جوان, 2012، تم الاسترداد من http ://www.Revues.Univ-Ouargla

40 - عبد الغاني خشة، الغلاف ومضمرات التصوف في "أنطق عن الهوى" لعبد الله حمادي،جوان, 2012، تم الاسترداد من http ://www.Revues.Univ-Ouargla

41 - علي المتقي، 2009،القصيدة العربية المعاصرة بين هاجس التنظير وهاجس التجريب، ص75

42 - مُحَمَّد الصالح المنجد ، ما هو كتاب الجفر ؟ ،22 09, 2014، تم الاسترداد من - http ://www. Islamqa. Info

43 - عبد الكريم برشيد ،2014، التأسيس والتحديث في تيارات المسرح العربي الحديث، ص129

قائمة المراجع :

القرآن الكريم، برواية ورش ين نافع مؤسسة الديار المقدسة للطباعة والنشر.

أولا: الكتب

1- عبد الكريم بن هوزان القشيري، 1441ه، الرسالة القشيرية، ط1، بيروت، لبنان، 1414ه، دار الجيل

2- عبد الرحمان مُحَمَّد القاعود ، 2002، الإبهام في في شعر الحداثة،ط1، الكويت، مطابع السياسة.

3- مُحَمَّد بنعارة، 2001، الاثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر،ط1، الدار البيضاء، المغرب، المدارس للنشر والتوزيع.

4- مُحَمَّد مرزاق، 2014، تفاعل أجناس الخطاب"رسالة الغفران" أنموذجا دراسة نقدية،ط1، طنجة، المغرب، الراصد الوطني للقراءة والنشر

5- علي المتقي، 2009،القصيدة العربية المعاصرة بين هاجس التنظير وهاجس التجريب،ط1، مراكش، المغرب، المطبعة والوراقة الوطنية

6- عبد الكريم برشيد، 2014، التأسيس والتحديث في تيارات المسرح العربي الحديث، دبي الثقافية(102).

حسن الشرقاوي، 1987، معجم ألفاظ الصوفية، ط1، القاهرة، مصر ، شركة مختار للنشر والتوزيع

7- علي عقلة عرسان، 1981،الظواهر المسرحية عند العرب، مكتبة الكتاب العرب، دمشق، سوريا،

8- خليل الموسى،2003، بنية القصيدة العربية المعاصرة المتكاملة،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا،

9- س موريه، 2003، الشعر العربي الحديث1800-1970 –تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي، تر: شفيع السيد، سعد مصلوح، دار غريب، القاهرة، مصر ، ط1.

10- إحسان عباس،1978، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، الكويت،ط1.

ثانيا: المجلات:

1- حبيبي خديجة، إشكالية المنهج السوسيونصي/نقدي بين بيير زيما وكلود دوشي؛قراءة تحليلية نقدية في المنهج والمفاهيم والآليات، مقال ضمن مجلة المعيار، جامعة تيسمسيلت، المجلد 12، ع2، ديسمبر 2021، ص219

ثالثا: المواقع الإلكترونية:

1- جمال مُحَمَّد محب، الشطح الصوفي مصدره وتأويله، 12 نوفمبر, 2020، تم الاسترداد من note notes screen in facebook.com

2- عبد الغاني خشة، الغلاف ومضمرات التصوف في "أنطق عن الهوى" لعبد الله حمادي، جوان, 2012، تم الاسترداد من http ://www.Revues.Univ-Ouargla
3- عبد الرحمان بدوي، الحسين بن منصور الحلاج، مقال منشور بتاريخ: 2020/06/18،arabia 21.com .
4- أحمد القاسمي، تعرف إلى خصائص التصوف الإسلامي ونشأته وتجلياته، جوان, 2012، تم الاسترداد من arabia 21.com
5- مُحَمَّد الصالح المنجد ، ما هو كتاب الجفر؟ ،22 09, 2014، تم الاسترداد من - http ://www. Islamqa. Info